الجبهة الانعزالية والبرجوازية اليمينية « المسيحية » ومنطقة المصانع ، الحركة الوطنية والجماهير البائسة والمقاومة الفلسطينية وجماهيرها ٠

وسنقوم بعرض لارقام المهجرين في هذه الاماكن من مختلف منابعهم واوضاعهم الاجتماعية والظروف التي يعيشون فيها حاليا وسابقا ،معتمدين بذلك بشكل اساسي على دراسة اعدتها وقدمتها الى كلية التربية في الجامعة اللبنانية سامية معاصري ، وعلى جريدة « النهار » اللبنانية ، وعلى احصاء قامت به وزارة الاسكان والتعاونيات وعلى بيانات اللجنة المركزية للمهجرين ، وعلى دراسة عن الوضع الديمغرافي لضواحي بيروت الشرقية ـ الشمالية اعدها المهندس رياض ثابت عام ١٩٦٨ ، وعلى دراسة هاني مندس العمل والعمال في المخيم الفلسطيني ١٩٧٤ ، وعلى احصاءات وزارة التصميم اللبنانية ٠

عودة الى تاريخ قريب

قلنا ان الهجرة داخل لبنان ، ومنه الى الخارج ، كانت ظاهرة موجودة قبل الحرب الاهلية يعزز استمرارها الاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة تاريخيا في لبنان ٠

تميز العقدان الماضيان في لبنان ، منذ بداية الستينات بظاهرتين اساسيتين منحتا المرحلة سماتها هما بروز وصعود ثم تراجع الشهابية ، ودخول المقاومة الفلسطينية وتحولها الى طرف اساسي داخلي في الصراعات في لبنان ٠

وذلك ضمن نطاق عربي تميز بهزيمة ٦٧ وضرب المقاومة في الاردن ١٩٧٠ وبافتتاح انور السادات مرحلة التراجع والاستسلام ٠

لم يكن فؤاد شهاب بذاته ليستطيع ان يشكل « ظاهرة » مميزة في التاريخ اللبناني ، لكن مصالحة البرجوازية المسلمة والبرجوازية المسيحية التي اعقبت « ثورة » ١٩٥٨ ، خلقت نوعا من الهدنة امام حكم بعيد نسبيا عن اجواء الاقطاع السياسي وعقليته العشائرية ، الامر الذي اوجد ظروفا امنية وسياسية هادئة ، فتحرك الرأسمال الخاص ، بتضافر مع الدولة وبتشجيع منها في خطة عامة اسفرت عن ربط لبنان باحكام في العجلة الاقتصادية الامبريالية من جهة ، وعن تغلغل رأسمالي وصل الى الارياف اللبنانية النائية ، كهرباء وماء وغسالات وثلاجات وتلفزيونات وسيارات وظهور ملاك زراعيين جدد اتوا من انعاصمة من جهة اخرى ٠

ومن يريد ان يؤرخ لبداية نمو الرأسمالية في لبنان ، عليه ان يؤرخ للفترة الشهابية ٠

وكان لا بد للسادة الجدد ان يخلقوا نقيضهم ، وان يباشروا حفر قبورهم بأيديهم كما قال ماركس مرة ، فبعثت دماء جديدة في نقابات عمالية مترهلة القيادة ، وتجمع فلاحون ، تحولوا الى عمال زراعيين عند الملاك الجدد ، تجمعوا في نقابات جديدة ، وافتتحت في بيروت مصانع جديدة استقطبت مئات صاروا من اطراف الريف البعيدة ، عزز ذلك التردي العام الذي يطبع الحياة الريفية البليدة والفقيرة ، فنشطت حركة نزوح كبيرة اصطدمت بغلاء متصاعد في بيروت ، فلم يكن امامها سوى التجمع في احياء فقيرة حول العاصمة نتج عنه تطويق بيروت بحزام بؤس متزايد العدد ومتزايد الفقر والهموم ٠

وما استدعته الصناعة النامية من حركة نزوح الى المدينة ، عززته الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على الجنوب ، فدرج الامر على وفود بائسين جدد في كل مرة توسع فيها الدولة العدوة من اعتداءاتها ٠

ولعبت المقاومة ، في وجهها الثاني ، عاملا استقطب مئات بل الاف الشباب الغاضب من اوضاع التمايز الطبقي والطائفي والسياسي الذي يقوم عليه النظام اللبناني ، ودخلت عنصرا فاعلا في الحياة السياسية الداخلية في لبنان ٠٠ وصار لرأي المقاومة وزن اساسي بما تملكه من قوات مسلحة خاصة ، وتأييد قطاعات متزايدة الاتساع في الشعب اللبناني ٠

هذا التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني كان يشير الى خطر اكبر بكثير مما كان يشكله في الوقت الراهن ، واول الاطراف التي استشعرت الخطر بشكل شبه غريزي في البداية ثم بشكل واع ، اتت من سليل المنظرين العرقيين اللبنانيين ، وليس صدفة ان يكونوا من الموارنة الذين تحكمهم « عقدة الاقلية في بحر من الاسلام يضرب موجه في كل الارض العربية » ، الا ان تركيبتهم الحزبية المنظمة الغامقة والتي تتسم بقيادة برجوازية مالية كمبرادورية وقاعدة تغلب فيها البرجوازية الصغيرة وصغار الكسبة والفلاحين ، مهدت الارض لتعزيز

٢٥٠ الف مهجر من النبعة و ٥٠ الف من برج حمود رحلوا الى الجنوب والبقاع ٠٠٠

شعور الاقلية التاريخي لان ينمو في مناخ فاشي عنصري ، وجد ملاذا وحاميا في كيان شبيه مماثل هو الكيان الصهيوني ٠

كان « الاسلام » و « العروبة » و « التقدمية » يتجسد امامهم خطرا قريبا مماثلا في الثوار الفلسطينيين والاحزاب اليسارية اللبنانية ، وكانت « الحضارة» و « البطولة » و « الغربوية » والاقلية ، امامهم تتجلى ايضا في اوضح مظاهرها في دولة « اسرائيل » ٠٠٠

وقد اظهرت حادثة الاوتوبيس في عين الرمانة في نيسان ١٩٧٥ ومن بعدها كل المعارك التي خاضها حزبا الكتائب والاحرار والتشكيلات الفاشية الصغيرة التي نمت على ضفافها ، اظهرت مدى التحضير المسبق والتخطيط الدقيق ، وكشفت ملامح المشروع الانعزالي : السيطرة على لبنان وكسر الاحزاب اليسارية وطرد المقاومة الفلسطينية لخلق كيان شبيه بالدولة الصهيونية ، وفي ادنى الاحوال خلق واحات متجانسة طائفيا وسياسيا « لتقسيم » لبنان كمرحلة تسبق مرحلة السيطرة على كل البلد ٠

وقد اتت العوامل والظروف الخارجية لتضع على الارض ما كان حلما في اذهان الفاشيين ٠٠ فقدمت ارضا صالحة للتدخل الاميركي ـ الاسرائيلي المتناغم للسيطرة على المنطقة ، الامر الذي مد بعمر الحرب اربع سنوات وكان مقيض لها ان تنتهي في شهور قليلة بعد كسر الآلة الحربية الفاشية ٠

ضرورة التهجير واشكاله

التهجير الجماعي ـ المنظم ، اذن كان الوسيلة والهدف لخلق بقع متجانسة طائفيا وسياسيا ، تحكم عليها الاطراف الانعزالية سيطرتها ومنها تقفز الى بقع مجاورة اخرى لتقضمها ٠ وبدون التهجير لا يمكن ، كما رأينا ، للمشروع الانعزالي ان يرى النور ٠

واتخذ التهجير ، كهدف ، اشكالا ثلاثة :

١ ـ تهجير لسبب سياسي مباشر : وتطال هذه الحالة المسيحيين اليساريين القاطنين في مناطق يسيطر عليها الفاشيون ٠ فأجبروهم على الرحيل واقتلعوا جذورهم من مناطقهم لانهم يشكلون نشازا على التجانس المأمول ، ولانهم ورغم ضعفهم الحالي ، يلعبون دور بذرة خطر قد يكون قادما ٠ و « تنظيف » المناطق الانعزالية اتخذ شكلا افراديا ، وشكلا جماعيا ايضا كما حصل في حارة الغوارنة وفي المتن الشمالي وفي الكورة وفي الجنوب ٠

٢ ـ تهجير لسبب طائفي : ولعبت خطوط التقسيم دورا اساسيا في تهجير قرى ومناطق مسلمة بأكملها كما حصل في مناطق ساحل المتن الشمالي وفي قضاء البترون حيث مسحت قرى بكاملها (راسنحاش) ٠ وقرى نسفت نصف بيوتها (الهري ـ كفريا ٠٠٠) ٠ وقد لقى هذا النوع من التهجير الطائفي ـ السياسي ، ردا مضادا من نفس النوع ٠

٣ ـ التهجير لسبب عسكري : وهو شمل كافة نوعيات القاطنين في مناطق المعارك وخطوط التماس ٠ وقد استفاد الفاشيون من جغرافية المعارك العسكرية ليبدؤوا بتطهير المنطقة الاقرب (تل الزعتر ـ النبعة ـ برج حمود ـ الدكوانة ـ المسلخ ـ الكرنتينا ٠٠٠) تمهيدا لخلق التجانس في قلب القطعة التي سيحوزون عليها بعد تجزئة لبنان ٠

محاولات العودة الفاشلة

من هنا يفهم الاصرار الانعزالي على الاحتفاظ بمنطقة المرفأ ومنطقة الفنادق ٠ بيروت ، ويوضح الهدف السياسي الذي اعطى المعارك العسكرية في هذه المنطقة طابعها الضاري والعنيف ٠

من هنا ايضا نستطيع تفسير الفشل الذي كان لا بد ان تنتهي اليه المحاولات التي بذلت لاعادة المهجرين الى بيوتهم ٠ فقد كان اهم محاولتين هما محاولة العودة الى مخيم جسر الباشا والثانية الى النبعة ٠

فالمحاولات اتت اصلا جزئية ، لم تأخذ بعين الاعتبار ضرورة حل شامل لكل مهجري الحرب ٠

وهي ثانيا ، كانت قاصرة على تشوف الهدف السياسي الذي كان دافعا اساسيا للتهجير ، وهو خلق التجانس السياسي والجغرافي كما ذكرنا في السابق ٠

وقد فشلت المحاولة الاولى ، رغم انها حدثت في ١٥ شباط ١٩٧٦ ، اي بعد الوثيقة الدستورية وقبل اجتياح النبعة وتل الزعتر ، والثانية في آخر آب ١٩٧٦ ، وفي المحاولتين لم تكن الرغبة تنقص الاهالي في العودة ، لكنهم كانوا يتطلبون حماية وضمانة لرجوعهم ، الامر الذي لا يمكن لاحد ان يوفرهما طالما ان سبب التهجير ما زال قائما ، وطالما ن الآلة العسكرية الفاشية لم تتحطم بعد ٠

الارقام الغائبة تتحدث

ولاعطاء فكرة عن « اهوال » الحصول على ارقام دقيقة عن المهجرين كافة ، نذكر ما قالته صحف الخامس من كانون الاول ١٩٧٧ ، فقد طلبت وزارة الاسكان والتعاونيات الى مجلس الوزراء الموافقة على اجراء احصاء سكاني بالتعاون مع منظمات الامم المتحدة يستهدف تأمين كل المعلومات الاحصائية عن المهجرين مهلة اقصاها نيسان ١٩٧٨ ثم تعدل تباعا خلال سنتين ونصف السنة ٠ وقدرت وزارة الاسكان تكاليف مشروعها الاحصائي بحوالي مليوني دولار !

اذن فوزارة الاسكان النشيطة ، تعد الجميع بدراسة شاملة كاملة عن اعداد المهجرين بعد سنتين ونصف السنة من عمل اختصاصيين دؤوبين ، لا يكلف اكثر من مليوني دولار ! على ان يبدأ العمل ـ كما تقول الوزارة في مشروعها ـ في ١ / ١ / ٧٨ وينتهي في ٣٠ / ٦ / ١٩٨٠ ٠

وامام ضحالة المعلومات الرسمية ، ملجأ كما ذكرت سابقا الى دراسات وجهود خاصة ، اهمها دراسة سامية معاصري التي نالت عليها شهادة الدبلوم في كلية التربية في الجامعة اللبنانية ٠

ونتكىء على هذه الدراسة وغيرها في محاولة لالتقاط الصورة الديمغرافية لمناطق : برج حمود والنبعة ، الدكوانة وتل الزعتر ، جسر الباشا ، المسلخ والكرنتينا ، هي كركبا وهي الاشهب حوالي تل الزعتر ، وذلك قبل الحرب الاهلية وبعدها للاحاطة بنوعية التهجير وكميته في هذه المنطقة ٠

الكرنتينا ـ المسلخ :

شهدت المنطقة استقرارا سكانيا اثر مجيء الارمن الذين فروا من المذابح التركية خلال الحرب العالمية الاولى ٠

عند نهاية ١٩٢٢ بلغ عدد الارمن المتواجدين في الكرنتينا ١٠،٥٠٠ نسمة (١)٠ وفي ١٩٢٨ غادرت ١٢٠ عائلة الكرنتينا باتجاه الاشرفية بعد تحسن اوضاعهم المعيشية ٠ وفي عام ١٩٣٣ ، اندلع حريق كبير (مفتعل لالغاء المخيم) ، اتى على ٦٠٠ بيت ، فغادر قسم من الارمن الكرنتينا الى برج حمود ، ومع مرور السنوات نقص عدد الارمن في الكرنتينا وزاد عدد وافدين جدد هم الفلسطينيون، ولبنانيون من الجنوب ، واكراد وسوريون ٠

فمنذ ١٩٤٨ ، بدأت موجة النزوح الفلسطيني الى لبنان ، ثم تبعها موجات النزوح الكردي ، ومع تطور النمو الرأسمالي في لبنان ، توافد العمال السوريون القليلي الكلفة ٠ وفي عام ١٩٦٣ كان سكان الكرنتينا على الوجه الآتي (٢) ٠

٦٤ بالمئة لبنانيين (بمن فيهم الارمن)
٢٠،٤ بالمئة سوريين
٦،٦ بالمئة فلسطينيين ٠
٩ بالمئة اكراد ٠

وبعد عام ١٩٦٣ خفض نزوح الارمن من الكرنتينا نسبة تواجد اللبنانيين ، وارتفعت بذلك نسبة الفلسطينيين والاكراد والسوريين الى ٧٠،٦ بالمئة ٠

وككل التجمعات السكنية التي تشكل حزام البؤس المحيط بمدينة بيروت ، فاغلبية سكان الكرنتينا هي شابة ، فان حوالي ٦٥ بالمئة من سكانها هم دون العشرين سنة ٠

---

(١) تقرير لعصبة الامم المتحدة ٠

(٢) ـ دراسة اعدها الاستاذان بورجيه وفارس ونقلتها دراسة سامية معاصري (التحركات السكانية في الضاحية الشرقية لمدينة بيروت خلال الحرب الاهلية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) ٠